

## ترنيمه الاستجداء

أحمد بلقاسم

ترنيمه الاستجداء

دار الحصاد

سورية دمشق

طباعة - نشر - توزيع

ها/فا: ٦ ٢ ٣ ٢١٢٦

darlhasad2013@hotmail.com

©

ط: ١ / ١٩ / ٢٠

لوحة الغلاف: فان جوخ

الحقوق محفوظة

أحمد بلقاسم

ترنيمه الاستجداء

قصص

إهداء

إلى ذوي القيم النبيلة في كل زمان  
وفي أي مكان..





١  
يد كريمة

وأنا أتلمس طريقني إلى ثدي أمي الذي أبعدني عنه  
رغبتني الجامحة في اكتشاف محيط مسقط رأسي؛ التقطتني  
يد من كرمه الله، وحمله في البر والبحر، ورزقه من الطيبات،  
وفضله على من خلق تفضيلاً، ماذا عساها أن تفعل بي  
يد كريمة كهذه؟ سوى العطف على البائس، والمسح على  
رأس اليتيم، والذود عن المظلوم، ومواساة المهموم، وجبر  
خاطر المكلوم، حملتني تلك اليد الكريمة وشعرت بدفئها،  
وحنوها، يتغلغل في أعماق ذاتي الصغيرة، لاهمالة استطعني  
مما رزقها الله من الطيبات، جست بدني من أسفل، ولما  
علمت أنني أنثى ولست ذكراً، وأن الذكر ليس كالأنثى،  
أمسكت بي من تلايبي وأخذت تلوح بي بقوة شديدة التي  
حباها الله بها، والتي استطاعت أن تنفذ بها من أقطار  
السموات والأرض، صانعة بي متتاليات من الدوائر في  
الهواء، حتى فقدت تركيزي، ولم أعد أعرف رأسي من  
مؤخرتي، ولا قوعي من بوعي، ثم أوحى لها عقلها الرزين،  
الذي ميزها به بارئها، أن تلقي بي صوب شجرة ضخمة،



بعدها تلتخ وجهها الصبح بقيي، وآخر ما تبقى في  
أمعائي من براز.

بقليل من الحظ تمكن ذيلي من الانفلات من رحمة  
الأنامل الباطشة. ولولا أطفاف الإله، ومشية الرحمان،  
لارتطمت بجذع الشجرة السميك، ولتهشمت جمجمتي إلى  
بضع وسبعين جزء، ولتمزقت أوصالي كما تمزقت خريطة  
العالم العربي. وبما أن يد الله مع الجماعة، جماعة محالي  
الواهنة، وأنياي الجائعة، وزغب فروي الناعم، فلقد أخطأت  
هذه الجماعة الجذع المنيع، واستقبلها فن سمح، لطيف،  
وضعيف مثلي، نزلت بين أنامله الرقيقة الفتية سهلا وحلت  
بها أهلا، ولقد كان بي أرحم من مرضعة على رضيعها،  
حين انحنى بكل عطف ورأفة، ليسلمني إلى الأعشاب  
الفتية، التي تحف الجذع، والتي ينعونها ظلما وعدوانا  
بالتطفل، فرحبت بي أيما ترحيب. غفوت بين أحضانها  
الدافئة حيننا من الدهر، حتى عادت أحشائي إلى مكانها،  
وكف راسي عن الدوار، أحسست وأنا نزيل بين تلك  
الأعشاب الندية الجميلة، بالطمأنينة والسكينة كتلك التي

كنت أنعم بها في رحم أمي، طمأنينة وسكينة ورحمة لم  
تمنحني إياها، يد من كرمه الله في البر والبحر.

بركان 2008 .

٢

هيفاء

سحبني من يدي التي ظلت لاصقة بكفه بعد  
المصافحة القوية الخشنة، وقال ضاحكًا: هذا النهار ستدفعُ  
الثلثن غاليًا، وقصد بي الشارع الرئيسي، وتوجه إلى أقرب  
مقهى، ويدي لا تزال ملتحمة بيده، كما لو كان يخشى  
أن يبتلعني الشارع، لما جلسنا قال:

- سأحكى لك حكاية طريفة، جرت لي يوم أمس  
بجامة فزوان.

- طيب؛ هات ما عندك لكن، بشرط؟

- ما هو؟

- ألا تُقصِّها على أحد.

- سأحتفظ بها لنفسى.

- ستعجبك كثيرًا.

- شوقني إلى سماعها.

إنها شبيهة بما يُقدّم في التلفزيون.

تقصد المسلسلات المدبلجة؟

- أجل.

- ذهبْتُ يوم أمس إلى حامة فزوان؛ لأنّهل من معينها، ما استطعت، لتنقية كليتيّ من الحصى الذي استوطنهما حيناً من الدهر، بعدما أخطأ طريقه في مجاري الأنهار والأودية، فبينما أنا جالس، أتأمل مشهد أطفال، وهم يسبحون في المسبح المجاور للحامة، وأشرب الماء، من قَيْنِيَّةٍ سعة لتر ونصف، إذ بفتاة هيفاء، ترتدي عباءة مزركشة، وقُبَّعة نسائية أشبه ما تكون بغربال، ينسدل من تحته ليل بهيم مديد، يحمله الكتفان بكبرياء فاتن، وتضع على عينيها نظارة قاتمة اتقاء لسعاتِ الشمس، كانت تجلس قُبَّالتيّ على بُعد بضعة أمتار، مذ جلستُ، وهي تحتلس النظر إليّ، مع مرور اللحظات صرت أرمقها خلسةً معتنماً فرصة رفع القَيْنِيَّة لتناول جرعة من الماء الفزواني، متظاهراً بالنظر إلى الصَّيِّية، وهم يغمسون أجسادهم في

الصفحة الزرقاء المتألثة، فيرسمون دوائر سريعة التوسع والتلاشي، شبيهة بتسونامي صغير ناعم ووديع ينعش الأبدان، ولا يثير الأحزان، أطفال في أوج نشوة فرحهم؛ إذ يغمسون أقدامهم البضة الناصعة البياض، في البساط المترجج مستسلمين لسحر الماء، مريحين ضاحكين، ثم يغوصون نحو الأسفل المنعش شيئاً فشيئاً، إلى أن يختفوا لبضع ثوانٍ وسط فقاقيع البلور المتصاعدة إلى سطح صفحة المرح والخبور الزرقاء، بعد سكون وجيز تنقب رؤوسهم الصفحة الرقاقة، وقد انسدل الشعر على الأعناق الملساء، وهم ينفثون الماء رذاذاً من أفواههم الضاحكة في وجوه بعضهم البعض، بلورات الماء الصافية تبدو على الأجسام الطرية كما الورود كَلَّها الطلُّ، وأما أصواتهم العذبة فتملأ الفضاء حيويةً ونشاطاً وقُوَّةً وضججاً نقيّاً.

- قلت مخاطباً نفسي:

لتكن هذه، هي نصفي، الذي أعياني البحث عنه في ولائم الأعراس والأتوبيسات، وقاعات الانتظار في عيادة الأطباء، ومكاتب استخلاص فواتير الماء والكهرباء،

نصفي الذي طالما سألتني عنه أمي، مرّدة لأزمّتها  
المشهورة، كلما سمعتُ بزواج جارٍ أو جارة:

قم أكملِ دينك؛ أتريد أن تُقبرِ أولادك في بطنك؟

متلعثماً من شدة الخجل رأيتني أُجيب القاضي:

نعم، سيدي، قبلتُ بها زوجة على كتاب الله، وسنة  
رسوله.

كذلك قالت هي، مطرقةً جفنيها، متوردةً الخدين،  
وقد تبخّرت نفسها خجلاً.

- أمضِ أنتَ هنا.

- طيب، سيدي.

القلم يكاد ينفلت من بين أناملي، من شدة عرق  
الخجل، يسحب العدل الصفحة المقدسة من أمامي،  
وييسطها أمام توأم روحي، محدّداً لها مكان التوقيع.

- أمضي هنا.

وهي تُوقَّع نسخة العقد المقدس، كانت تنعش قلبي  
بعدهما فقد نبضه منذ سُبَّات طويل..

بالرِّفاء والبنين، مبروك.

- شكراً، بارك الله فيك، عبارة متقطعة خرجت من  
حنجرتي.

ما إن استقرت نظراتي الحاملة في بؤبؤ عينيها الهادئتين  
الملحيتين، حتى تسارعت نبضات قلبي، واحمَّرت وجنتاي،  
وارتعشت رُوحِي، ورفرفت بجناح حب دفين، مفجرةً في  
كياني ينابيع العشق الصافية، عَرَقًا ساخناً وبارداً على  
الجبين، ظللتُ مشدوهاً في وجه البدر الصبوح.

حين قامت بقَدِّها الميَّاس تروم مقصدي، سبَّقتها  
أنفاس عطر فواح، وشعاع بسمة أسرٍ، كاد يخطف بصري،  
رأيتني أركب سهوة خيالي الحالم، فلم أدر في أيِّ جنة حُبِّ  
أنا؟ رأيتُ فيها جميلاً وَبُئِينَاهُ، وَكُثِيرًا وَعَزَّتَاهُ، وقيسًا وليَّلاه،  
كلهم قاموا مرحبين: يا مرحبًا بالمتيم الجديد، أطبقوا علي  
بالأحضان أن أقبلَ أيها العاشقُ الوهَّان، ما أحلى حلاوة



الحب! وما أَلْفَ نَسَائِمِهِ الرَّكِيَّةِ! أَخَذْتُ قَبَسًا مِنْ  
وَجْدِهِمْ، صُعُتُهُ تَاجًا مِنْ ضِيَاءِ، كَلَّلْتُ بِهِ جَبِينَ فَاثْنَيْتِي.

وَبِعَيْنَيْنِ بِاسْمَتَيْنِ، تَرَجَّلَ الْغَصْنَ الطَّرِي فِي دَلَالٍ وَتَرْتُمُ،  
مُتْرَعًا بِالزَّهْوِ، يُخْفِي خِصْلَةً تَدَلَّتْ فِي حَيَاءٍ عَلَى الْجَبِينِ  
الْمَشْرِقِ، تَحْتَ سَوَادِ حِجَابٍ، بَاحٌ بِمَا يَخْتَلِجُ فِي أَعْمَاقِهِ  
بِأَهْمَةٍ حَارَّةٍ حُلُوءَةٍ، كُلُّهَا رَقَّةٌ وَحَنَانٌ، أَحْنَى هَامَتَهُ أَمَامِي  
خَجَلًا وَوَقَارًا، رَأَيْتَهُ يَمُدُّ يَدَيْهِ الْبُضَّتَيْنِ، مُخْتَالًا فِي مِشِيَّتِهِ،  
يَتَمَاجُ كَمُهْرٍ وَدِيْعٍ، تَرَجَّلَ بِهَدْوٍ وَدَعَا، وَازْدَادَ صَفَاءً عَيْنِيهِ  
بِالِاسْمَتَيْنِ إِشْرَاقًا، اقْتَرَبَ مِنِّي حَتَّى صَارَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى  
مِنْ خَافِقِي، انْحَنَى الْعُودَ الطَّرِي الْأَسِيلَ بِاسْمًا، وَالْيَدَانِ  
الْمَمْشُوقَتَانِ مَمْدُودَتَانِ، أَنْ أَقْبَلَ يَا حَبِيْبِي! مَا أَعَذِبُهُ مِنْ  
صَوْتٍ! وَمَا أَشْهَاهَا مِنْ كَلِمَةٍ! (حَبِيْبِي!): تَنْدَلِقُ مِنْ ثَغْرِ  
مَخْتُومٍ بِالسَّحْرِ الْحَلَالِ، حِينَ يُؤَمِّضُ سَنَا الضِّيَاءِ مِنْ مُحْيَاهَا،  
تَرْقِصُ الرُّوحَ عَلَى نَبْضِ الْقَلْبِ الَّذِي اسْتَعَادَ حَيَاتِهِ السَّلْبِيَّةَ  
مِنْ جَحِيمِ الْحَرْمَانِ الْمَقِيَّتِ، وَالْكَبْتِ الْبَغِيضِ، حَدَّايِ أَنَا،  
أَنَا الْوَلْهَانُ، اصْطَلَيْتُ بِلَهَيْبِ الْمَحَبَّةِ، حَتَّى كَادَا يَنْزِفَانِ،  
وَتَصَلَّبَ لِسَانِي، عَجَزَ عَنِ الْبَيَانِ، وَجَفَّتْ شَفَتَايَ، خَطَرَ

بالروح خاطرٌ: أن كان الله في عون قيسٍ، وجميلٍ، وكثيرٍ،  
وروميو، وكل ضحايا الحب، في شتى الأمصار والعصور،  
يا وَيْحِي، يا لَهْفِي! البدرُ يَخْنِي هامته أمامي تواضعًا، ومحبةً،  
وشفقةً على القلب المنفطر، يبسط لي كفيه، كما القمر  
انشقَّ إلى نصفين، كل كف ملأى بالوَدِّ، طوبى لك أيها  
المتيمُّ الوالهُ، والعاشقُ المعشوق، والحبُّ المحبوب، أنعم بها  
من شريكة حياة، جاءتك تمشي على استحياءٍ، وداعًا  
أيتها العزوبية الملعونة، عش كريمًا في كنف الحب الدافق  
الدافئ، حَفَضَتْ عَيْنَيْهَا حياءً، ومُحِبَّاهَا المَفْعَم بِالرِّقَّةِ  
والسكينة، يُطْمَئِنُّ النفسَ المضطربة، تنسَمْتُ روائحها  
الرَّكِيَّة، حتى تَمَلَّتْ رُوحِي، ونزفت، أليس هذا الصدر الناتئ  
باحترامٍ، وهذا الخصر المرن الشهي الملمس، وهذه  
الذراع البضة الفتية، والشعر الحريري المسبول، والعينان  
الكحيلتان، والشفاه الندية، والحُدَّان الملتهبان؛ هذه المفاتن  
الحسنة أغرتني بأن أقدم رُوحِي مَهْرًا لفاتنتي.

يا ويح خافقي، الكفان البضان يجيدان عن طريقهما،  
يمتدان في دلال إلى ما تحت مائدتي، وبكل رشاقة، رشاقة

لاعبة الجمباز، قفزت هُرَيْرَةً كانت مضطجعة تحت طاولتي،  
مستمعة بنعومة العُشْب الأَخضر النَدِيّ، تَكْوَمَت الهُرَيْرَة،  
بين الأحضان الدافئة، التي طفحت عليها مَسْحًا بكفها  
الناعم، فيا له من ناعم، يمسح ناعماً، حَمَلَتْها بلطف،  
وَقَبَّلَتْها بلطف، فأطْبَقْتُ شفيتها على مُقَلَّتَيْها الناعستين  
بلطف، أَلطافُ الإلهِ أَنْعَمَتْ عَلَيْكِ أيتها المدللة بأعزِّ  
النِّعم، أَنْعِمِ بهِ وَأَكْرِمِي، من حاضن لمحضون!

بَقِيْتُ بُرْهَةً، أَمْسَحُ عن عيني غشاوةَ الحب الداهم،  
الهارب، ثم انصرفْتُ خجلاً نحو المرحاض، أَجُرُّ أذْيالَ  
الخيبة، لأفرغ حقينة مثانتي، في زجاجة شفافة، عملاً  
بنصيحة خبراء المياه المعدنية، من بائعي البنزين المهرب،  
وسائقي سيارات الأجرة، الذين لم يَدَّخِرُوا جهداً في شرح  
منافع وأهمية مياه الحامة المذكورة، فَرُحْتُ أَدِقُّ النظر إلى  
الحُصَى، وهو يَلْقَى مصيره المحتوم، أمام مفعول المياه  
الشديد، يُفْتِتُّه بنجاعة الليزر بلا شفقة، مطهراً كُلِّيَّتي من  
عبثه القاسي.

دسّ رأسه بين منكبيه مثل حلزون استشعر خطراً،  
ولاذ بالصمت هُنَيْهَةً، ثم أخرجته، وقال مستأنفاً حديثه:

- كيف وجدت الحكاية؟

- رشّحها لجائزة نوبل للآداب، ولا تحشّ لومة ناقد.

- صحيح، ألهذا الحد أعجبْتِك؟

- يبدو لي أنني قرأت مثلها في كتاب، أو جريدة  
قديمة.

- آه يا صديقي، كم بتُّ أهيم بهاها!

- الهيفاء التي سلبت عقلك؟

- لا، بل القطة، التي حَظِيَتْ بِحُبِّ الهيفاء.

ما إن أتى على وضع نقطة النهاية لحكايته هذه، حتى  
نهض مستعجلاً يسحبني من جديد من يدي، فأسْفَطَ  
منها القلم الذي كنت ألوّث به حاشية الجريدة، فضلاً عن  
فنجان قهوتي.

- هيا، قم فوراً.

- إلى أين؟

- إلى الصيدلية.

- ولم، هل ألمّ بك مكروه؟

- الهيفاء.

- ما بها؟

- رأيتها تدخل الصيدلية، ظننتُ أنني لن أراها ثانية،

يا لَعَطْفِ السماء، يَا لَسَحَاءِ القدر!

- على رِسْلِكَ، اسمح لي أن التقط قلمي!

مددْتُ يدي أسفل الطاولة، اصطَدَمْتُ أطراف

أنا ملي بشيء ناعم الملمس، أَطَلَلْتُ برأسي، وَصَحْتُ في

وجه جليسي الوهان:

الهيفاء قريبة من هنا، ألقى بنظرة تحت الطاولة لتتأكد

من أثرها.

ما كاد ينحني، حتى صاح منبهراً، وقد تَهَلَّلَ وجهه:

- يا إلهي، هذه سعيدة الحظ هنا.

حَضَنَ سَعِيدَةَ الْحِظِّ بِكُلِّ لَطْفٍ وَدَعَا، وَطَفِقَ يُهْدِيهِدُ  
عَلَيْهَا بِكُلِّ مَا حَوَى قَلْبَهُ مِنْ حَبِّ وَرَقَّةٍ، وَهِيَ تَمُوءُ مُوَاءً  
هَادِتًا، وَتُحَرِّكُ ذَيْلَهَا الْمُرْنَ تَمَسِّحُ بِهِ أَرْنَبَةَ أَنْفِهِ، وَتُرَكِّنِي أَوَاجِهَ  
النَّادِلِ، وَأَسْتَسْمِحُهُ عَنِ تَكْسِيرِ الْفَنْجَانِ، اتَّجِهَ صُوبَ  
الصِّيدَلِيَّةِ، لَا يَلُوي عَلَيَّ شَيْءٌ، لَمْ يَجِدْ فِيهَا سِوَى رَجُلٍ  
يَرْتَدِي وِرْزَةً بِيضَاءً، يَجْلِسُ وَرَاءَ الْحِصَالَةِ الْإِلِكْتُرُونِيَّةِ، وَفَتَاةٍ  
مَفْعَمَةٌ بِالشَّبَابِ وَالْوَسَامَةِ تَوْشَّحَتْ بِالْبِيَاضِ هِيَ الْآخَرَى  
بِمَحَازَاتِهِ، تَعْبَثُ بِقَلَمٍ مَرْبُوطٍ إِلَى صَدْرِهَا النَّاتِي، جَالٍ  
بِصَرِّهِ بَيْنَ الرَّفُوفِ كَمَنْ يَبْحَثُ عَنِ شَيْءٍ يَعْرِفُهُ، ارْتَدَى إِلَيْهِ  
طَرْفُهُ خَاسِتًا وَهُوَ حَسِيرٌ، نَدَّ مِنْ ثَغْرِ الْفَتَاةِ الْيَافِعَةِ سَوَآلٌ:

- تَفَضَّلْ، سَيِّدِي!

دَنَا مِنْهَا مَتَفَرِّسًا مُحْيَاها، كَمَا لَوْ كَانَ يَرِيدُ أَنْ يَبُوحَ لَهَا  
بِسِرِّ، حَتَّى كَادَتْ الْقِطْعَةَ تَلَامِسُهَا هِيَ الْآخَرَى، رُبَّمَا فَعَلَ  
ذَلِكَ عَمْدًا لِحَاجَةٍ فِي نَفْسِهِ، بَعْدَ هَنْيِهَا صَمْتٍ، قَالَ:

- أَرِيدُ دَوَاءً!

- تَرِيدُهُ لِلْقِطْعَةِ؟

- لا، بل لي أنا!

- ممّ تشكو سيدي؟

- من خيبة الأمل، آنستِي!

بركان 2011 .





٣

بقعة ملعونة

من فرط شوقك لارتداء ملابس جديدة، فإنك تنتظر على أحر من الجمر تلك الفرصة السانحة، والتي لا تتكرر إلا مرتان في السنة كرحلتي قريش. وقبل أن تلف جسدك النحيل داخل الثياب الجديدة؛ بعد ذلك بالحجر الرملي، ودهنه بالصابون البلدي، فإنك تستعجل التجرد من الأسمال البالية، ناظرا إليها بعين السخط والاحتقار، مستعجلا لها ذلك المصير المشؤوم؛ بأن تمزق قطعاً صغيرة ليصنع منها " سافس " أو تستعمل لحمل الطجين الساخن، حين إخراجه من التنور.

في البداية أسررت لها أنك ستخضعها للامتحان، إن كانت تناسبك طولا وعرضا، وبعد ذلك تتركها وشأنها، أول محك لها تعرضها على الوالدين الكريمين، فإن نالت إعجابهما، حظيت أكثر فأكثر بعطفك وحبك لها.

الأم منهمكة في دق وريقات الحناء في المهراس، تطربك دقات الدقاق المتتالية، لاسيما الدقة التي تخطيء هدفها وتصيب حافة المهراس. الأب يردد أذكار العيد قبل

الأوان؛ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر والله الحمد.

- أمي، أبي، انظرا، إنها جميلة جدا، أليس كذلك؟  
- بالصحة والعافية، اعتن بها حتى الصباح.  
- أجل، أجل، سأعتني بها جيدا.  
بعد أن انفردت بها، أسررت لها ثانية، أنك تحبها،  
فشرعت في تقبيلها.

- أيتها العزيزة الغالية، أحبك كثيييراً؛ غدا سأقدمك  
إلى أصدقائي، أكيد سيعجبون بك أيما إعجاب، سيغارون  
مني، بل ومنهم من سيحسدني ويعض أنامله الفتية من  
الغيرة، ويود المسكين، لو كنت من نصيبه أيتها المحبوبة  
المبجلة لا من نصيبي أنا.

- ...!

- أكيد تشاطريني الرأي؟

- ...!

- السكوت علامة الرضا.

- أتمنى أن تتكرر زيارتك لي في السنة أكثر من المرة  
والمرتين، ببساطة أنا أحبك، وأناقتك أيتها الجميلة، تعجبني  
كثيرا.

ثم شرعت في فتح أزرارها، والتصقت بها والتصقت  
بك، فيالها من متعة ناعمة، وياله من شعور عميق، ومديد  
بالفرح، يسري في الكيان مسرى الدم.

كرم الضيافة، يأبى إلا أن ترحب بها أيما ترحيب، كما  
لو كانت ضيفا كريما، فتغدق عليها بالتقبيل والحنان  
والعطف الزائد. بل إنك تقسم بأغظ الأيمان، كما يفعل  
والدك لحت الضيف على المكوث بين جنبيكم يوما آخر  
على أيام الضيافة المعهودة. تقسم أن تبين معك وتكون  
في ضيافتك. من أول نظرة، وأول لقاء حميمي، تعرض  
عليها أن تقاسمك فراشك، الليلة قبل الغد فلكل زمان،  
طقوسه ونكهته ومتعته، فهذه اللحظات السعيدة، ليست  
كسابقاتها البئيسة، وربما كانت لحظات الغد المنتظرة،  
أسعد من هذه، التي هي طوع يديك.

فما كان منها إلا أن رضخت لرغبتك الجامحة،  
مستجيبة للقسم الغليظ،، كيف لها أن ترفض طلبك، وأنت  
تكن لها من الحب ما لم ييح به عنتره لعبلاه، وما لم يتغن  
به قيس لليلاه. لتأوي بها في الأخير إلى فراشك منتشيا  
بالفرح، وتناما قريري العيون.

الحذاء وحده الذي استثناه القسم، وآثرت أن تتوسده  
تارة، ثم تحتضنه تارة أخرى بيد مكفنة وقابضة بإصرار على  
عجينة الحناء، مثلما تقبض روحك في هذه الليلة المباركة،  
بعروة السعادة الوثقى، سعادة العمر السنوية، وبسالة قل  
نظيرها بين بؤساء العالم. ثم تغمض جفنيك مستسلما  
للذيد الأحلام، مطمئنا للقطعة النقدية النحاسية من فئة  
خمسين سنتيما، التي تدفئ الجيب وتزيد الأحلام لذة فوق  
لذة.

مع أول صيحة لأول ديك، تقتلعك الفرحة من  
فراشك، فتضطر لقطع حبل الأحلام الوردية الجميلة،  
تدخل كلتا يديك في جيبك متنسما أولى نسمات الصبح  
العليلة، نسمات العيد، ومتحسسا القطعة النحاسية، لكن

سرعان ما تخرجها، وقد صفعتك يد الخيبة المريرة صفقة شديدة، تكاد ينهد لها كيائك، وترغمك على كبح جماح فرحتك الموسمية حيناً من الدهر، ريثما تشرق الشمس وتجوّد عليك بخيوطها الدافئة، عساها تبتلع البقعة الداكنة، التي استحوذت على منطقة مهمة من سروال العيد الجديد، على مستويي الحوض والورك، ولسان حالك يقول: تبا للبرتقال ولفيتاميناته، تبا لي إذ لم أكثرث لتحذيرات أمي: باركاك من اللتشرين راه غدا العيد سر تنعس باش تفيق بكري؟

فأين أنت من شمس أغسطس الحارقة، ومن شمس السمائم، كل يوم فيها صفيحة جمر تستعر، نعبر عليها إلى اليوم التالي... لا بأس وقد وقعت الواقعة، لعل شمس يناير الكسولة تفي بالعرض... خجولة أطلت شمس يناير المرتقبة منذ بزوغ فجر اليوم السعيد، تماما كما تمنيت. وجادت عليك، أو بالأحرى على سروالك بشعاع دافئ، لكن ما إن لامس البقعة الملعونة فيه، حتى أرخت سحابة ثقيلة الظل سدولها على الشعاع البهي، وشدت بخناقه كي يمج

ما ابتلعه من البقعة العطنة الملعونة على عجل، فاسحة  
المجال لهذه الأخيرة، كي تتربع على عرشها الجديد صحبة  
قطرات مطرية أبت إلا أن تحييكَ، تحية العيد.. ما أحلاك  
يا عبيد.. يا عبيد ما أحلااك.

بركان، 2011 .





٤

ترنيمه الاستجداء

سبقت أصدقائي إلى الساقية ورحت ألمي النظر في  
مويجاتها، وهي تتسابق جذلانة في التواء عجيب نحو  
المصب.

أسئلة كثيرة طرحتها على نفسي حول سبب اختفائهم  
المباغت،

لما يئست من طلعتهم البهية، عدت أدراجي إلى المنزل  
أجر أذيال الخيبة، لاحظت أمني تجهمي فبادرتني متسائلة:

- أتخاصمت مع أحد من أصحابك؟

- لا.

- ما سر هذا الوجوم؟

- لا أثر لأصحابي في الحارة، لا أدري أين ذهبوا

ليلعبوا بدوني.

ردت باسمه وهي تخرج الأواني من حوض رغبة

الصابون و تغطسها في حوض الماء الصافي:

- أيها الأحق الصغير لقد ذهبوا إلى المدرسة، أنت

أيضا لو كان أبوك حاضرا لسجلك معهم.

حينئذ تذكرت المغزى من قول العمّة يامنة وهي تساعد زوجها في تثبيت البردعة على متن الحمار، وتضع كيسي الحبوب في الخرج المصنوع من الحلفاء، وتنصحه بأن لا يهمل صك الطحين، تجنبا لأية مشاكل مع صاحب الطاحونة اللجوج:

- إن الله قد جعل المدرسة لنا ولحمارنا نعمة ورحمة، فهي تريحنا وتريجه من عبث وضجيج هؤلاء الشياطين المردة، غيرما مرة ضبطتهم ممتطين صهوته صارخين بكلام غريب؛ دجانكو، سرطانا، ليزان ديان، شاهرين في وجوه بعضهم بعض بنادق من قصب.

اكتسح التجهم رقعة وجهي حتى اختفت أساريه، إذ لا يعقل أن أبقى وحيدا في الدوار ريب العوانس، رجوت أمي أن تجد لي حلا، فأنا أيضا أريد الالتحاق بالمدرسة.

- ألا يكفيك الذهاب إلى الجامع؟

- سئمت من ترديد ترنيمة الاستجداء:

بيضة بيضة لله باش نزوق لوحتي.

لوحتي عند الطالب.

الطالب فالجنة.

و الجنة محلولة.

حلها مولا نا.

مولانا وصحابو في الجنة ينصابوا.

كما سئمت جلسة القرفصاء على الحصير، أفضل  
الجلوس على المقعد دون أن أخلع حذائي.

- في الجامع تحفظ القرآن الكريم، وفيه البركة.

- في المدرسة يكتبون بالريشة والمداد على الدفاتر،  
وليس بأقلام من قصب على ألواح خشبية، ولا وجود  
لرائحة الصلصال والسمق في القسم.

- هذا فقط ما يجعلك تنفر من الفقيه والجامع؟

- رأسي أيضا سئم من نقرات عصاه المعنفة، إذا ما  
تلكأ لساني في استظهار سورة أو لحن في آية ما، والمنبهة  
إذا ما غشيتني غفوة ما بعد الظهرية.

- رأسك عامر فهامات، غادي نشوفك، ونشوف

هذا الرأس وما فيه؟

- أشتاق إلى القراءة في كتاب جميل الخط، ألوان صوره زاهية، وفيه أناشيد وقصص جميلة.

عندما رأني متمسكا بقراري، طلبت أمي من جدتي أن تصحبني إلى المدرسة، ومن شدة فرحي أمسكت بيدي اليمنى يسرى جدتي رحمها الله بقوة، تمسك الغريق بجبل النجاة، حرصت على أن لا تضيع مني، كما ضاع الأصحاب صباح ذلك اليوم التعس وتركوني يتيما أصارع الفراغ وحيدا. أما يمناها فلقد كانت تمسك بها كناش الحالة المدنية؛ يمناها التي كانت قبل قليل تدير الرحي بشكل آلي دورانها طالما أغراني بالجلوس إلى جانبها، مستحليا ذلك التناغم بين دندنة جدتي وجعجعة الرحي، كأنهما يتجادبان أطراف حديث شيق حول موضوع مهم. كم كان يستهويني منظر الحبوب وهي تنثال من يد جدتي في حففات نحو حتفها، إذ تزدردها الفوهة الجائعة، والتي لا تتوقف عن الدوران والازدرد إلا وقد حوّلت الحبيبات إلى مسحوق أبيض ناعم، على الحافة المستديرة للرحى الحجرية.

بتؤدتها المعهودة؛ نفضت جدتي يديها من غبار  
الطحين بعدما كنست جوانب ألتها العجيبة ذات الأزيز  
الطروب، ثم تلفعت بالملفة؛ رداءً قشيبٍ زادته ألوان الطيف  
بهاء ووقارا. غادرنا المنزل وطنين الرحي لا يزال يشنف  
مسمعي، ودورانها ما زال يملأ عيني. كانت فرحتي تزداد  
اكتساحا لجوانحي، مع كل خطوة نخطوها نحو المدرسة، في  
الطريق كنت أنظر من حين إلى آخر إلى وجه جدتي  
السموح الوقور، وتستقبلي خصلات شعرها الملونة بالحناء  
بابتسامات خجلى، وهي تطل علي من تحت الحجاب،  
وكأنها تشاركني فرحتي العارمة بتوجهي إلى المدرسة، حيث  
سألقت بلقب تلميذ، أخذت أشجار الكاليبتوس السامقة  
التي تحف ساحتها، تكبر وتشرئب لاستقبالنا، مرحبة  
بقدمنا من بعيد بتمايل أغصانها، و برقصات أوراقها  
اللامعة، ومن بين هذه الأشجار العملاقة، كانت تترأى  
لنا أقواس بناية المدرسة العملاقة والبديعة، وكأنها تتكلم أن  
هلم إلي أيها الضيف الجديد، لأضمك بين أحضاني ضما.  
فأستحث جدتي على السير بسرعة.

- اسمع يا ولدي يتعين على أبيك أن يعلم بأنك في حاجة إلى ميزانية إضافية خاصة بك لاقتناء لوازمك المدرسية من كنانيش وكتب وأقلام ومحفظة، هل فهمت يا بني؟

أجيبها بسرعة رافعا بصري إلى خصلاتها المخضبة بالحناء، ضاغطا بأناملي الفتية على أناملها الرقيقة المعروفة.

- نعم، فهمت جدتي!

في حقيقة الأمر، لم أفهم شيئا مما تفوهت به، فكل ما كنت أود أن أفهمه، هو متى أكون قادرا على التغني بأنشودة هيا، هيا، نجري جريا، وأكلة البطاطس، وأنشودة إخوتي جاء المطر، وغيرها من الأناشيد التي كان من سبقوني إلى ولوج المدرسة، يتباهون بها مستعرضين عضلاتهم علي، أمام سكان القرية.

لما اقتربنا من بناية المدرسة ذات الأقواس الكبيرة، لفت نظري رجل وقد شطر باب الفصل جسمه إلى شطرين، ابتلع شطرا وأبقى على الآخر يتولى مهمة مراقبة الساحة. عندما دنونا منه، التحم به شطره المخفي واستدار نحونا، بدا فارع الطول، نحيل الجسم، عريض المنكبين، شاحب

الوجه، حليق الذقن، رقيق الشفتين، شامخ الأنف، كث  
الشاربين، بني العينين، مقوس الحاجبين، أذناه علامتا  
استفهام رسمتا بخط جميل، تلفع بقميص نصف كم ناصع  
البياض، وبسروال رمادي كأنه خرج توا من رحم مصنع.  
بادرته جدتي بالتحية، فرد عليها التحية مشفوعة بابتسامة  
شديدة اللمعان، اندلقت من بين الأسنان المتراصة كحبات  
السبحة، ألقى نظرة ساطعة عجلي عليّ، ثم حول نظره إلى  
كناش الحالة المدنية في يد جدتي. بينما كنت أنا أتلذذ  
بتكسير أوراق الكالبيتوس المتساقطة تحت أقدامي، و أتابع  
عن كئيب عبث النسيم بها، مجبرا إياها على التكدس حول  
حافة البئر المنغرسه وسط الساحة والمرتفعة بمقدار قامتي  
عن سطح الأرض.

- هذا حفيدي يريد أن يلتحق بالمدرسة.

- طيب.

ناولته الكناش، دلف به إلى الفصل ثم مالبت أن أعاده  
إليها، ليسحبني بلطف من يد جدتي متوجها بي إلى مقعد  
شاغر في آخر القسم، بجوار صندوق حديدي اخترق  
بأنبوب سميك جدار القسم، لقد أخذ مني هذا الشيء



العجيب بضع دقائق من وقتي الثمين، لأعرف فيما بعد أنه مدفأة، قبل أن أدير وجهي جهة السبورة حيث المعلم يتفنن في كتابة بعض الكلمات المنمقة بالطبشور الملون، ندت عني صرخة مكتومة مشفوعة بفرحة عارمة: وداعا يا ألواح الفقيه، وداعا أيها السمق الحزين.

بركان، نونبر 2011 .



٥

ضيف النشرة

رغم حساسيتي المفرطة إزاء ما تقدمه القنوات المحلية من برامج بئيسة، وأخبار ممجوجة من أفواه الفضائيات العالمية، واستنكافي عنها بالقراءة أو بالإبحار في خلجان الشبكة العنكبوتية، إلا أنني تعودت على أن تتركها تقضم قزمة عنيفة من وقتي المهدور. أحيانا أريد أن أحشر نفسي في شرنقة المازوشيين، ممتحنا، أو محاكيا قدرتهم على الصمود في وجه سياط الألم. استجمعت كل أسباب الشجاعة وقوة التحمل وأسلمت وجهي للشاشة، فها هي المذيعه المنبهره بعملية التجميل الأخيرة التي أعارتها أنف صبية أحسن، تبدو مزهوه في أغبي حللها وأبلد وعيها، تضحك على ذقني وذقن كل مشاهد مخدوع، ومفتون بشوفينية سمجة بليدة، تشيح عني وعن المضحوك على ذقونهم بنصف وجهها المتستر تحت قشرة سميكة من المساحيق، لتستقبل ضيف نشرتها الشريفي.

- معالي السيد الوزير يشرفنا حضوركم في هذه النشرة،  
باسمي وباسم كل الذقون المضحوك عليها أحييكم وأرحب  
بكم.

قبل أن يرد التحية تزحزح معاليه في كرسيه الوثير  
الدوّار، و أخذ يمسد ربطة عنقه بأنامله المعقوفة كمخالب  
صقر ملكي من العقدة حتى أسفل بطنه الضامر، ثم أصدر  
حنحنة ملفوفة في شحنة من سائل لزج، ابتلعها وهو يرد  
التحية بصوت متحجرش، طالبا العفو وهو يركز نظره في  
عيني مضيفته، ربما كانت شحنة السائل اللزج المبتلعة هي  
مصدر الحجرشة وابتلال العينين.

- معالي السيد الوزير؛ نغتتم فرصة تواجدكم معنا  
لنطلب منكم تقديم كلمة مركزة حول الدخول السياسي  
الجديد !

في الوقت الذي غطى وجه معاليه عرض الشاشة، وقد  
بدت مخالب الصقر الملكي تمسد ربطة العنق من عقدتها  
حتى أسفل البطن بشكل آلي، رن هاتفي فقامت مسرعا  
أفتش عنه في جيبي معطفي لأرد على المكالمة، ولقد كلفني  
البحث عنه والرد على صاحب المكالمة قزمة عميقة  
وعنيفة على مستوى شحمة أذني وجيبي، فصاحبي يريدني  
أن أقدم له سلفة، لست أدري لماذا لم يستعمل كلمة قرض

بدل سُلْفَة، على أية حال لم تزعجني هذه العبارة، بل على العكس من ذلك، فلقد كان لها وقع أخف على نفسي وعلى ميزانيتي، من وقع قرض أودين. ختمنا المكاملة السُلْفَة بالحديث النبوي الشريف،..والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.. لم أخف استغرابي عدم ثقتي في الوعد الذي قطعه صديقي على نفسه بأن يرجع لي ما استلفه مني مباشرة بعد العيد.

عدت إلى الشاشة التي استحوذ عليها وجه الوزير تاركا إياها تأكل لحمي حيًا وتشرب دمي طريًا، وتبدد وقتي المهذور أنى تشاء. لعلني أستفيد بقبس من نور معرفته، أو أمتح حفنة من معين علمه الدافق، كيف لا وهو وزير محنك، ومنتحزب أكل من كل قدر عظاما ولحما، فضلا عن ذلك فهو نعم الوطني الغيور على سمعة البلد السعيد، أكيد إن له تصورا يختلف جملة وتفصيلا عن تصوري، الغارق في التشاؤم حول الدخول السياسي الجديد. تملكنتني الحيرة والاستغراب حينما سمعته يقول بصوته المتحشرج:إنها لمفارقة عجيبة أن أستهل عودتي إلى مكتب وزارتي بعد

الإجازة الطويلة خارج البلد ببعض الإجراءات الصارمة في حق بعضهم.

- هل من توضيح أكثر معالي الوزير؟

- أحد موظفي وزارتي أصدرت أوامري لإعادة تعيينه في الثلث الخالي تأديبا للسانه الطويل..

- وماذا أيضا؟

- وآخر محوت اسمه من خريطة الوظيفة العمومية.

- ...؟

- أحلته على المعاش وهو في عز الشباب.

- ...؟

- لأنه أحب أن يلعب دور ليش فاليسا.

- معروف عنكم الجرأة في اتخاذ القرار المصيري.

- قراري في وزارتي خط أحمر لاينا قش، أعرف من

أين تمسك العصا.

- أجل الجميع يعرف ذلك فرائحتك عبقت بها كل  
جهات المملكة السعيدة.. أقصد أخبارك تلهج بها السنة  
شرائح عريضة من المجتمع.

- نسيت أن أقول لك ماذا فعلت بأحدهم؟

-!.....!

- هاتي أذنك أخبرك.

بعد الوشوشة الوزارية في أذن المذيعة المنبهرة بأنفها  
الصبياني الأخنس، عادت هذه الأخيرة محمّرة الوجه،  
لتختم لقاءها بضيفها بصوت ذي حجرشة مقززة، ربما هي  
الأخرى ابتلعت كتلة من سائل لزج، بينما استمر مخلب  
الصقر الملكي يدلك لسان معاليه، من الحلق حتى أخص  
قدميه. مع تكرار عملية التدليك للسان الطويل، أخذ هذا  
الأخير ينفث رذاذا، تأثرت به المذيعة وشفحة الشاشة  
أيضا، ثم استفحل الأمر بأن خرجت عصارته إلى وجهي،  
وتفاقم الوضع أكثر فأكثر، بأن تحوّلت العصارّة المقززة إلى  
إعصار عنيف، أطاح بباب ونوافذ غرفتي، وجرفني خارج  
البيت رغم محاولتي اليائسة في مقاومة عنفوانه بالتشبث



بأثاث الغرفة، ومن ثم تسلل بي إلى الشارع وهو يتلقف كل من صادفه في طريقه من أطفال وعجزة ونساء حوامل، وباعة متجولين. فقط الفتية الأشداء والرجال الأقوياء المستعصمون بأركان البنايات العتيدة الأسس، كانوا بمنجى من تهوره. بعد سويغات قلائل من الكارثة دلفت مقهى لأتأكد من صحة ما حدث، فرأيت فيما يرى مشاهدو القنوات الفضائية، الأضرار الفظيعة التي خلفها اللسان الإعصار، فعلمت أن ضحاياه كثير، ذكر مراسل القناة المستمسك بميكروفونه استمسك الأعمى بعصاه، والغريق بجبل نجاته، أن من بين الضحايا آلاف من الموظفين، وأئمة مساجد، وثلة من رجال الأعمال، وأطفال أبرياء... انقطع صوت المذيع عندما امتدت أذرع أخطبوط لتشفطه في حيرة من صاحبه، تبين فيما بعد وفي خبر عاجل، أن الأذرع الأخطبوطية إن هي إلا العصارة المقززة السالفة الذكر وقد تشظت لتغطي كل أنحاء المملكة السعيدة..

بركان، 2012 .



٦

لتحيا الحكومة

"سيداقي سادتي، تأهبوا واربطوا أحزمتكم" للمرة الثالثة يتناهى إلى أسمع الركاب صوت المضيفة الرخيم الساهرة بتفانٍ ولباقة منقطعة النظير وبحرص على راحتهم وسلامتهم داخل البيت الطائر، هذه المرة أخبرتهم أن المركبة ستحطُ بمُدْرَج مطار شارل ديغول الدولي، خدمةً لبعض الرُبَّاء الكرام، عِلْمًا أن الرحلة انطلقت من أرضِ سكانها يُجْبون الحيوانات إلى درجة التقديس والتوريث، فلقد صعد سَلَمها قَطُّ في مطار هيثرو في لندن، وفي محطة ثانية امتطتها بقرة من مطار أمستردام الدولي، بينما ارتقى صهوتها في هذه الأثناء حمار حين خفضت جناحيها في عاصمة الأنوار.

البقرة ذات الإهاب الأسود الفاحم المشوب ببقع بيضاء، والوجه العريض ذي العينين الواسعتين المتلائتتين، والمِنْخارين الشاخصين، والمكَلَّل بقرنين ممتدين في سَمِّ إلى الأمام، منذ استوائها في مقعدها الوثير أناخت بكلكلها على الشبكة العنكبوتية تُبحر في موضوع بالغ الأهمية ومصيري بالنسبة لها؛ ألا وهو موضوع جنون البقر، هذا

الوباء الذي أودى بحياة الكثير من بنات وأبناء جلدتها، شعرت بالقرف إزاء النظرات المحدقة فيها والتي مشطتها من قرنيها ومنخريها، مروراً بضرعها الممتلئ، حتى أخمص أظلافها، وبدت مُتَعَجِّفةً تمامًا كأثرياء دول العالم الثالث.

أما القَطُّ ذو الشعر القصير الكثيف، والعريض الرأس بأذنين مطويتين إلى الأمام، وعينين مستديرتين واسعتين، المنعطف الذيل المكتنز الأطراف، لم يحرك ساكنًا للسهام المتطائلة عليه، فقد آثر أن يقضي وقته في مشاهدة شريط من سلسلة توم وجيري عبر الآيفون، بين الفينة والأخرى كانت تندُّ عن فمه صرخة إعجاب رقيقة حيال ابن فَرَوْتِه توم وهو غائص في مقعده المخملي.

بينما حافظ الحمار على هدوئه ورباطة جأشه، دون أن يُزعج أحدًا من مُجالسيه، ودون أن يولي كبير اهتمام لرعونة بعض رفاق الرحلة من بني آدم، فلقد انكبَّ يلتهم صفحات من "رقصة الربيع الكبرى" لجاك بريفر، وفي الوقت ذاته كان يستمتع عبر السماعة اللاصقة بأذنه بكشكول غنائي لكلود فرانسوا، ميشيل ساردو، وجاك

بريل، ومن حين لآخر كان يسهو فيندلق من بين شفثيه  
الصهباوين مقطوع من أغنية موقعا بصوته الرخيم، فيزداد  
بريق العيون المسلطة عليه لمعانا، حين يشنّف أسماعهم  
مرّداً مع جاك بريل:

لا تتركيني

سأهديك لآلى من مطر

أتت من بلاد قفر

سأحفر الأرض حتى الفناء

لأكسوك ذهباً وضياء

ما كان يُحدث في آذان سامعيه وقراً هو ذلك النبؤ  
الذي كان يخلو له أن يُكرّره عدة مرات وهو في أوج  
انتشائه، بحيث تبدو شفثاه ثخينتين حيناً كأنما ينفخ في  
مزمار، ورققتين حيناً آخر كأنما يبتسم في وجه خليلته،  
ولشدة ولعه بالشعر والموسيقى، لم يَنْتبه إلى كأس العصير  
الذي وضعته أمامه المضيفة الوسيمة ذات الصوت العذب  
الرخيم، الرشيق القوام.

ومثلما كان صعود الغرباء الثلاثة على مراحل، وفي محطات مختلفة، فكذلك كان النزول؛ فالبقرة نزلت في مطار القاهرة الدولي، رغبة في التعرف على أرض أهل الكنانة عن كَثْب، والقط نزل في بلد كرم الضيافة، بينما لم تُعرَف وجهة الحمار بالتحديد، لكن من المؤكد أنه حل ضيفًا كريمًا على القارة السمراء.

الغريب في الأمر أن البقرة قفلت راجعة بسرعة إلى وطنها على جناح الكونكورد قاطعة إجازتها، وفي مطار فيلد بررت في تصريح صحفي لوسائل الإعلام المحلية والعالمية، سبب قطعها لزيارتها لأرض الكنانة، قائلة بلهجة تنم عن غضب شديد، وقد حركت ذيلها الحريري بعصبية ملحوظة حتى كادت تشفط كاميرا مُستجوبها من على كتفه، قالت والغضب يُمزق تقاسيم وجهها:

- كيف تريدون أن أمكث في بلد تقوم ربة البيت لتحليني قبل أفول النجوم فجراً، والأطفال الرضع يُهزولون لامتصاص ضرعي حتى تمزيق الحلمة ضحى، والأب يعتصرني عصراً، وهو يغني ملء فيه:

ناح النواح والنواحة

على بقرة حاحا النطاحة

والبقرة حلوب

حاحا

تحلب قنطارًا

حاحا....

- أمر فظيع.

- الأدهى من ذلك أن الوقح توَدَّ إليَّ بأن أتزوج منه؛

كي أمكِّنه من إنهاء أوراق الإقامة في هولندا.

-.....!

- حاول إرشائي بتحفة أثرية ثمينة.

- هل قبلتِ الفكرة؟

- كيف أربط نفسي برجل يطمس تاريخ أسلافه.

في الوقت الذي كانت البقرة الحلوب تُستجوب في

مدرج المطار السالف الذكر، كان القط الأسكتلندي يرُدُّ



بلسان شكسبير الفصيح على مُراسلي وسائل الإعلام  
المرئية والمسموعة والمقروءة:

- لماذا وضعتَ حدًّا لإجازاتك مُبكرًا؟

- ثمة سبب رئيسي ووجيه، يتمثل في شعوري  
بالانزعاج والمضايقة من بعض التصرفات.

- مثل؟

- ما من خطوة خطوتها في درب من الدروب وما  
أكاد أقترّب من مائدة من الموائد الشهية إلا ورماني وانتهرني  
كل من رمقني بقنابل صوتية محلية الصُّنع.

- هل أنت متأكّد مما تقول؟

- إي والله.

- وكيف نجوت؟

- كنت أصم أذني بمخالي وأتركها تملأ الفضاء بدويها  
المقرف: صصص صصص صصص، وفي الأخير  
قررت إنهاء جولتي في بلد الجود والكرم قبل الأوان.

- أما الحمار الغريب الأطوار فكادت تنقطع أخباره  
ويطوي رحلته الخالدة إلى إفريقيا النسيانُ لو لم يظهر في  
تحقيق بثته إحدى الفضائيات المختصة في عالم الحيوانات:  
- إن بقائي في هذه الأرض الجميلة طيلة هذه المدة،  
يرجع لسبب واحد ورئيسي، ألا وهو أنني وجدت في أهلها  
وشائج قرابة متينة وقوية وعريقة جدًّا جدًّا، هاء هاء هاء.  
- عجيب!

- دون أن ننسى أن لي معهم قواسم مشتركة لا تُحصى  
ولا تعد.

- مثال على ذلك؟

- تطابق في العقلية وفي التفكير وفي الطموح؛ بدليل  
أنني أشارك في التظاهرات العامة جنبًا إلى جنب مع  
مناضلي البلد.

- وما الذي أثار انتباهك أيضًا هناك؟

- هاء هاء هاء، الشيء الذي حَيَّرني، أن أهل هذه  
البلاد أشداء على الأقوياء، رحماء على الضعفاء؛ لذا

تجدهم يكثون في بناء الأقفاص الحديدية للأسود؛ ليُفَرِّجوا  
الناس عليهم وهم يضطلعون بأدوار القردة البهلوانية، بينما  
معشر الحمير حرة طليقة تسرح وتمرح فوق قمم الجبال، وفي  
الأودية، وأصواتها العذبة تملأ المروج نهيئاً.

- هل من إضافة؟

- هاء هاء هاء، لا أذيع سرّاً إذا قلت لكم: إنني  
استفدت مؤخراً في دورة تكوينية من دروس في مجال السمو  
بالنفس عن الدنيا.

- ما الجدوى من ذلك؟

- أتبرّع بجسدي للسباع الجائعة في الأقفاص السالفة  
الذكر؛ كي تستمر عجلة تنمية البلاد في دوراتها دون  
توقف.

- كلمة أخيرة.

- هاء هاء هاء لتحيا الحكومة، التي وشّحت رقبتني  
بوسام الشرف والتضحية.

بركان، 2013 .

٧

کاتب رسائل

ما خاب من استشار عملا بهذه الحكمة البليغة  
الدلالة والعظيمة الفائدة، استشرت عقلي في أن أجد شغلا  
أصارع به عوادي الزمن، ولأن العجلة من الشيطان، فلقد  
أخذ وقته الكافي ليرشدني على سبيل العمل الذي سيعفيني  
من أكل لحوم الآدميين موتى وأحياء في المقاهي وأناكاره  
لها، لقد توصلت برده قبل موعد السوق الأسبوعي بيومين:  
اقترح عليّ أن أجمع عدّتي وأن أنصب خيمة في رحبة  
السوق، وهكذا سيأتيني الفرج باسماء، ويهرول نحوي الحظ  
السعيد ضاحكا.

صبيحة يوم السوق استيقظت باكرا، وسرت أحمل  
خيمتي على كتفي متأبطا عدّتي، أستحث الخطى نشوان  
نحو غايتي، بخفة ومهارة نصبت خيمتي في مكان خال إلا  
من بضع خيام متهالكة، إن هي إلا لحظات حتى غطى  
القماش الرث كل البقع المجاورة، وأخذت الخيام بما فيها من  
بضاعة تصدح، إلا خيمتي ظلت واجمة متوجسة تنتظر أول  
الزبناء. صففت القصاصات على منضدة صغيرة مثقلا  
كاهلها بأقلام حبر جاف خوفا من عبث الرياح، كما

بريت قلم الرصاص جيدا تحسبا لأي طارئ. في الوقت الذي هممت فيه بالخروج من الخيمة إذ بالفرج رفرج بجناحيه: امرأة مكتنزة في عقدها الخامس ترتدي جلابة ذات لون أزرق سماوي وتخفي مياها بلثام أسود، تنتعل حذاء يشبه أحذية الرجال بلون التراب، جعلتني أثبت في مقعدي، أخذت تنظر إلى القصاصات والقلم المبري طويلا و تمهمم بكلام غير مفهوم، ثم رفعت بصرها نحوي قائلة بصوت خفيض:

- سيدي أريدك أن تجعله لا يفكر فيها إطلاقا ولا حتى في أحلامه.

- سيدتي؛ يبدو أنك...

- دعني أكمل كلامي ونفس الشيء بالنسبة لها هي أيضا، لا أريدها أن تذكر اسمه البتة.

- سيدتي؛ يبدو أنك...

- ماذا؟

- ربما تسرعت.

- لا لا، لم أتسرع بل آن الأوان لتضع حدا لهذه المهزلة.

- سيدتي يبدو أن...

- يجب عليك أن تشتت شملهما، لا أريده أن يلتقي بها ولو طرفة عين بعد الآن.

- سيدتي يبدو أ...

- وأن تجعل صورته ذرات رمل تدمي مقلتيها.

- سيدتي يبدو...

- وأن تجعل اسمه علقما في لسانها.

- سيدتي...

- أريد أن انفصلا انفصالا أبديا، هذا كل ما أريده

منك سيدي وقبل أن يشمت فينا الأعداء، أرجوك عجل بعملك.

- سيدتي؛ ما الخدمة التي تريدين أن أسديها إليك؟



- بكل وضوح، ثمة شاب تقدّم لطلب يد ابنتي وبعد  
أن تمت الخطوبة اكتشفنا أنه محتال، مراوغ ومخادع.
- كيف عرفت ذلك؟
- كيف لا أعرف وهو في أول الأمر قدّم نفسه لنا  
على أنه طالب وسيخرج من الجامعة دكتوراً.
- جميل..!
- كيف يكون جميلاً وهو إنسان كذاب؟
- قبلنا به زوجاً لابنتنا حين اعتقدنا أنه ستكون له  
عيادة، أو يشتغل طبيباً لدى الدولة ولكنه في الأخير  
انكشفت عورته.
- ربما يكون كذب كذبة بيضاء؟
- كذبة بيضاء؟!!
- أجل ثمة كذبة يطلق عليها كذبة بيضاء، بمعنى أنها  
لا تفسد في الود قضية.

- يا سيدي كذبة من أشتكي إليك منه، كذبة  
سوداء، لاتنبت الشعر.
- أفصحي.
- زعم أنه في خلال سنتين سيصبح دكتورا، وأن ابنتي  
ستلقب بزوجة الدكتور.
- إذن لا عيب في هذا.
- لا بل ثمة عيب وعيب كبير..
- ماذا تعنين؟
- أنه دكتور لا يعالج الناس ولا حتى نفسه...
- كيف!؟
- إنه دكتور في الكتب والكلام فقط، وليس دكتورا  
طبييا كما سائر الدكاترة الذين يعملون في المستشفيات.
- آآآه فهمت.
- لذا أرجوك سيدي أن تكتب حرزا قويّ المفعول،  
يجعله يتعد عنا ما بعدت السماء عن الأرض.

- عليك بالخيمة المجاورة.

- !...

- أنا كاتب رسائل فقط.

بركان، 14 دجنبر 2013 .



٨

جثة

استلقى على قفاه بقامته المديدة على حافة الرصيف،  
ترك ذراعه اليمنى تتدلى لتلامس الإسفلت، بينما شكل  
بكوع وعضد الذراع اليسرى زاوية قائمة أتاحت لوجهه  
المكدود فسحة يطل من خلالها على العالم بعينين  
مغمضتين، وفي قبضة الزاوية القائمة التفت أنامله بإصرار  
على ورقة طويت بإحكام.

وقف طفلان عند رأسه يتأملانه في اندهاش ثم ما  
لبث أن قال أحدهما للآخر: شمكار! و حاول أن يتبع  
العبارة قهقهة خفيفة، فأثناه رفيقه عن ذلك بعضة من  
شفتيه. خلف الطفلين توقف ثلاثة رجال - أغلب الظن -  
أنهم كانوا في طريقهم إلى المسجد، قال حامل المسبحة:  
سكير، وقال ذو اللحية الصهباء: أف من أم الخبائث،  
وقال ثالثهما: اللهم أخرجنا من دار العيب بلا عيب. ومع  
اتساع دائرة المتفرجين أخذ رأسي يثقل ويثقل حتى كاد  
يتدلى على صدري حيناً وينثني على ظهري تارة أخرى، لما  
تحسسته براحتي وجدته قد نبتت فيه أزواج من الأذان، التي  
انبرت للحضور الكريم تسترق منه السمع: صرع..

سكران.. مس من الجن.. دليو.. سلسيون.. القرقوبي..  
تينتو.. هبل تعيش.. السكري..

لَقَتَ المشهَدُ مجموعةً من الشباب فانضموا إلى الجوقة،  
بعد برهة تقدّم شاب رشح محياه بالفطنة والنباهة بتأن نحو  
الجسد الممدد ثم انحنى عليه وأمسك بالسبابة والوسطى  
معصم الذراع المتدلية على الرصيف، ووضع سبابة ووسطى  
يسراه عند العنق.. - أغلب الظن أنه ممرض إن لم يكن  
طبيباً- وشوش أحدهم.. بعدما تحسس شرايين الجثة رفع  
بصره نحو المجموعة وقال إن القلب ينبض، علت الوجوه  
علامة الارتياح واطمأنت الأفئدة. بعد ذلك قال: ألم تنادوا  
على الإسعاف! ردّ آخر قد فعلت ولكنهم تأخروا في  
المجيء. و بإيحاء من أحد أعضاء المجموعة الشاب انحنى  
الشاب على القلب النابض وقام بفك قبضة يده المتشبثة  
في إصرار بالورقة المطوية بعناية، بالكاد أخلت أنامل الفك  
سبيل الورقة، سواها الشاب تأملها ملياً ثم قال: هيا بنا إلى  
أقرب صيدلية..- أغلب الظن أنه رجل أمن - همس  
أحدهم في أذن آخر.

تبادل الجمع نظرات الدهشة وقال قائل: اللهم أخرجنا  
من دار العيب بلا عيب.. وقال: آخر أف من الجهل أبي  
الخبائث.. وقال ثالث: مريض مسكين أعوزه الدواء. أما أنا  
فقد شعرت بشيء يتساقط من رأسي الثقيل على منكبي  
وعلى صدري ويقع على الأرض ثم يذوي بسرعة ويجف  
فيتحول إلى غبار تذروه الرياح، لقد استعاد رأسي خفته  
وحيويته ولم تعد رقبتني تنوء بحمله...

#### هامش:

\* شمكار اسم يطلق على من يشم عادم السيارات والحافلات والشاحنات

\* سيلسيون مادة تدخل في اصلاح عجلات السيارات والدرجات يستعملها

البعض كمادة مخدرة

\* القرقوبي أقراص طبية مهلوسة

\* ديليو مادة تشبه الكحول لكنها حارقة يستعملها بعض المنحرفين كمخدر.

بركان، غشت 2014 .



٩

بئر شطون

تأبط الربيع آخر نفحة ندية ورحل غير مودع، فأطلق  
الجفاف لسانه السليط ليلحس كل شيء تلاًماً أمام عينه،  
اغتصب كديكتاتور حديث عهد بالسلطة بقسوة وبنهم  
كل ذرة ماء صادفها في طريقه، فلا تلك التي احتمت  
بالبراعم نجت من جيروت مخالفه الحادة، ولا تلك التي  
وأدت نفسها تحت الثرى نالت شفقتة. في كل صباح يطلع  
على الدنيا بوجهه الضمآن يعب أنفاس الثرى والبشر، يلوي  
أعناق السنابل، يخمد الصدى في الحناجر، يرشف قطرات  
الندى في السحر.

توقف الرجل عن الحفر وشد الحبل حول خصره ثم  
صاح:

- أخرجوني؟

- ما بك عم درويش؟

- لا بأس أخرجوني حالا.

فك وثاق خصره. فبادروه بالسؤال من جديد عن  
سبب توقفه عن الحفر.

- أكيد حدث لك مكروه.
- لا لم يحدث لي أي مكروه.
- إذن ما الحكاية؟
- وأنا في غيابات الجب استفزني سؤال محير.
- ما هو؟
- قالت لي نفسي غاضبة موبخة:
- اسمع أيها الشقي!
- تفضلي يا نفسي الأبية.
- أنت لم تستطع كسب رزقك فوق الأرض وعلى نور شمسها!؟
- أجل يا حياتي!
- فكيف ستعثر عليه في بطنها تحت العتمة؟
- لله درك من نفس طيبة طوبى للأنفس الطيبة أمثالك.
- ما إن كاد ينهي كلامه حتى بادره صحباه متسائلين:

- والصفقة التي برمنا مع الحاج؟
- لينزل إلى القاع لقد تركت عدة الحفر هناك.
- ماذا دهاك يارجل!؟
- لينفخ الروح في جذور ثروته من أسفل.

بركان، نونبر 2014 .

١٠  
خبيّة أمل

سمعتها تنن وتقول بصوت أجش حسي الله ونعم  
الوكيل، ثم أخذت تنشج نشيجا مؤثرا وهي تستغيث: أيها  
الرجل الطيب أنقذني حفظك الله وجازاك عني خيرا، أكاد  
أهلك..

أسرعت الخطى نحو مصدر الصوت المستغيث، ومن  
حسن حظها أنني رفعت بصري إلى الأعلى في ذلك المكان  
المعتم المشبع بالرطوبة، فوقعت عيني عليها، يا لفضاعة الأمر  
وجهها شاحب و شعرها أشعث أغبر لا يأبه بها أحد،  
أمسكت بيدها وأخرجتها من المأزق الذي كانت فيه،  
الوهن البادي على جسمها يشي بأنها تعاني من الهزال إما  
بسبب سوء التغذية، وإما بسبب فقر الدم، كيف لا  
يصيبها هذا الداء وقد ظلت حبيسة ذلك المكان الضيق  
البائس مدة لا يستهان بها من الزمان ولأنها كانت تعاني  
من عسر في التنفس، فلقد تصدقت عليها بشيء من  
أكسيجيني، معتمدا تقنية رجال الوقاية المدنية وحراس

الشواطئ في نقل الهواء لرثتي الضحايا المهديين بالاختناق  
نفخت فيها من أنفاسي حتى انتعشت رثتها الضامرتان،  
بعدها التقطت أنفاسها ومسحت عن محياها الغبار؛  
سألتها عن أولئك الأشخاص الذين كانوا بجوارها ولم يبادر  
أي واحد مهنهم لنجدتها ومواساتها في محنتها، بل الأنكى  
من ذلك لاحظت على ملاحظهم علامات الاستهزاء بها،  
ولم أنج من نظراتهم المبطنة بالغموض والريبة؟ قالت لما عاد  
إليها رونقها وهي تدعو بالويل والثبور على من كان سببا  
في الزج بها هناك.

- رأيت صاحب اللحية الهوشيمينية، الذي ما انفك

يمشطها بأنامله المعقوفة؟

- دعيني أفكر إنه يشبه يشبه يششش..

- إنه محمد زفراف.

- هو بالذات.

- و ذلك الذي بجانبه صاحب القبعة التونسية عريض

الجبين؟

- إنه طه حسين؟

- وذو النظارتين الطبيتين السميكتين الغارق في

التفكير؟

- إنه صاحب نوبل العربية نجيب محفوظ.

- وأما ذو السحنة الغامضة التي تجمع بين الحزن

والسخرية أكيد أنك تعرفه.

- إنه زكريا تامر.

- والجالس عن يمينه؟

- صاحب البيرية السوداء والشارب الأصهب، أكاد

أسمع نقيق حمامه إنه توفيق الحكيم.

- أجل إنه هو.



استغربت من تصرف خيرة أدبائنا وتجاهلهم لأنين  
المسكينة المغلوبة على أمرها، وعزمت على أن أقصدهم  
مستفسرا سر تجاهلهم نداء المستغيثة. فما كان منهم إلا  
أن سخروا من نخوتي هذه وقد عبّر طه حسين عنها بقهقهة  
مجلجلة حتى كاد يرتد بصيرا، و الشيء نفسه فعله توفيق  
الحكيم حتى اسود شاربه وتزحزحت عن رأسه بيريته، وأما  
نجيب محفوظ فلقد افتر ثغره عن ابتسامة عريضة ارتجت  
على إثرها زيبته وهو يقول يالك من عيّل ظريف وغرّ،  
وقد استحسن كلّ من زفازف وزكريا تامر هذه المداعبة من  
نجيب. وفجأة أطرق الجميع وخيم الصمت المطبق على  
المكان. بقيت هنيهة مشدوها لما بدر منهم، إلى أن  
أحسست بيد تجذبني لمغادرة المكان إنها يد الصغيرة الهزيلة  
جدا.

للانعتاق من نير محتجزها وللاستمتاع برفقتها، كان  
لابد أن أدفع عشرين درهما ثمن حرّيتها - ثمن قليل وأجره

كبير- . على جناح السرعة توجهت بها إلى أقرب مقهى  
لمعرفة قصتها كاملة دون نقصان، فأنا أومن بالحكمة البليغة  
القائلة: - تكلموا تعرفوا، فإن المرء محبوبه تحب لسانه فإذا  
تكلم ظهر- . تكلمت بكلام مقتضب وقصير جدا، جدا،  
جدا، قلبت صفحاتها الواحدة تلو الأخرى، حتى وصلت  
إلى الفهرس لعليّ أجد فيها ما يكشف عن هويتها، فلم  
أجن سوى ضياع الوقت والسخرية من سذاجتي من قبل  
توفيق الحكيم وجماعته. أمسكتها على وهن من معصمها  
وتسللت بها خلسة إلى المكتبة التي حررتها منها مكمما  
فاها بيدي حتى لا أثير انتباه جماعة الحكيم، فيغسلونني  
تشفيا وسخرية، بخفة الساحر الحاذق ودفنتها على وهن  
بين دفتي مجلد عتيق، أمعنت في التستر وأنا كظيم أتوارى  
عن عيون النخبة الأدبية من سوء ما جنت يداي.

لكنني وأنا أوليها أخص حذائي، تفرقت في أذني  
القهقهات التي تحاشيت قدر المستطاع تفاديه، لم ينتشلي

من خضم خجلي سوى صوت صاحب " قالت نملة" وقد  
أطل علي من نافذته الداخلية: يا أحمد إن بيض النمل  
لايسمن ولا يغني من جوع.

بركان، فبراير 2015 .



۱۱

مجبور

جرب حظه في مجال الإبداع في شتى ألوانه؛ في كتابة  
القصة القصيرة جدا، القصة القصيرة، الرواية، الشعر  
عموديه وأفقيه حره ونثره عاميه وفصيحه، غير أنه لم يلق  
القبول في مسعاه هذا وعلى حد تعبيره لم يجد من يفهمه..و  
وَقَّع ثم ختم بالشمع الأحمر آخر صفحة كتاباته في هذه  
الأجناس: ( الله يجيب من يفهمنا) ونفض يديه من الإبداع  
في هذا المجال كما ينفذ العسال يديه من جيش النحل  
عن الشهد.

ومادام في العمر بقية، ومادامت الأفكار ملقاة على  
قارعة الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي،  
كما يقول الجاحظ رحمه الله، التقط واحدة و قرر أن  
يجرب حظه في مجال الإخراج في شتى أنواعه، الإخراج  
السينمائي أولا، فالإخراج المسرحي إلى أن انتهى به  
المطاف إلى مساعد مخرج في قاعة الحفلات والولائم  
حفلات الأعراس وحفلات التأبين، غير أن الحظ التعس

نكّس له رأسه مرة أخرى، ولم يكتب له النجاح في هذه التجربة أيضا، وعلى حد تعبيره: إن أفكاري تستعصي على الفهم لدى النخبة فكيف بالدهماء؟ ( الله يجب من يفهمنا وخلص). أوصد باب الإخراج بمفتاح لتنوء بالعصبة أولي القوة وألقى بالمفتاح في رفوف النسيان وغسل يديه جيدا بالماء والصابون من فكرة الإخراج.

أخيرا استقر رأيه على أن يخوض مغامرة تجربة جديدة، فهو يؤمن بمقولة - أن الإنسان ما خلق عبثا ليعبث بل ليجرب حتى لو نهشه الجرب- هذه المرة؛ فكر أن يتنقب أي أن يحمل مشعل النضال كما فعل ذات زمان جميل \*ليش فاليسا\* ولم لا؟ قد تفهمه الطبقة الكادحة فهما جيدا؟ أتبع القول العمل فلم يعد يظهر له أثر في البلد، لأن النقاب الذي وشّح به رأسه وكشّحه كان أسود حالكا بحيث أصبح من المستحيلات السبع التعرف عليه، ومن

حياه الله برؤية طلعتة البهية فكأتما صادف الساعة المباركة  
في ليلة القدر المقدسة...

بركان، دجنبر 2015



۱۲

جاسوس

في الحقيقة، الضجيج الذي ملأ غرفة نومي، وأقصد مضجعي، ومزَّق شريط أحلامي، وجعلني أنهض غاضبًا، متوعدًا مُثِيرَ هذه القلاقل الخبيثة بأشد العقوبات، ولم يذهب تخميني سدى في أني سأمسك بمثير الشغب في زمن قياسي، وبالفعل ألقيت القبض عليه في أسرع وقت ممكن، إنه فأر في ريعان شبابه، بعينه اللامعتين، وشاربيه الراقصين، يقف أمامي وجهًا لوجه على غير عادته دون خوف أو حياء، في استفزاز سافر شرع يُجْرِك ذيله ذات اليمين وذات الشمال، ويمسح وجهه الناتئ كقمع صدئ براحتيه الصغيرتين، غير مبال ولا مكترث لأوداجي المبتفحة، غير آبه بما سأنزله عليه من عقاب شديد.

- تعال أيها المارد الصغير، ستدفع الثمن غالبًا.

- ولم يا رجل؟

- كل هذه الفوضى وهذا الإزعاج، وتدنُّر بثوب

البراءة؟

- ما خطبك يا رجل!

- دعنا من الزيادة التي يعرفها القاصي والداني، إنما أعني أنها ضخت في رصيد سباتنا خلال شهر رمضان الفضيل، ستين دقيقة بالتمام والكمال لتصرف فيها كيفما نشاء!

- الآن فهمت، ولكن ما ذنبي أنا حتى تشدَّ بخناقِي، وتُحبس عني رحمة الله؟!

تالله ما أنا من أثار هذه الفوضى!

- من إذا؟ لا تُحاول الكذب؛ فحبله أقصر من ذيلك!

- سأقول الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة.

- هيا قل كلمتك وامش، ومن العبث أن تُحاول تمطيط جبل عمرك بضعة سنتيمترات؟

- ماذا لو قلتُ لك الحقيقة؟

- سأخلي سبيلك، هيا قل!

- أعطني الأمان بألا تُسلمني إلى أعدائي.
- لك ما شئت.
- إن العابثين بكُتبتك الذين يفسدون عليك نومك
- هم...هم...
- تكلمّ دون تلعثم.
- ما زلتَ على عهدك؟
- أجل، قل لي من هم هؤلاء الأوغاد الذين يُكذِّرون هدوءَ غرفتي، ويعبثون بمدخرات مكتبتي.
- إنهم شخصيات القصص والرّوايات.
- ما هذا الهراء؟ لن يُنجيك هذيانك من العقاب!
- أنا لا أهذي يا رجل!
- إذن، واصل هذيانك، بل كلامك.
- إنهم يتسلَّلون لوادًا من كتبهم مع أول صيحةٍ ديكٍ، فينزِلون مُهرولين نحو الشارع.
- أمر عجيب ومحيّر! لأي غرض يفعلون ذلك؟!

- من أجل الكسب الحلال.

- ماذا؟

- كما سمعت، فمنهم من يبيع الشبكية، ومنهم من يبيع الرغائف والفطائر، ومنهم من يتاجر بالبقدنوس والقزبر، وما إلى ذلك، إنهم يَنشطون طيلة النهار في الشهر الفضيل.

- كيف علمت ذلك؟

- سمعتُ أحدهم يقول: أيها الرفاق، أيتها الرفيقات، نحن أبطال مرموقون، فمَنَّا المناضِلون، ومَنَّا حاملو مبادئ وقيم نبيلة، ومَنَّا الثوريون، ومَنَّا ما دون ذلك، المهم أن شهرتنا تجاوزت حدود دَفَات الكتب التي حُشرنا فيها أيها الرفاق، ليس من المعقول أن نظلَّ حبيسي هذه الدَّفَات دون عمل، يجب أن نزيح عنَّا غطاء الخمول والكسل، ونُشَمِّر عن سواعد الجد والكد؛ لنعيش بعرق الجبين بأنفة وكرامة.

- ثمَّ ماذا أيضًا؟

- صَفَّقَ لَهُ الْجَمِيعَ، وَشَرَعُوا فِي مَغَادِرَةِ الْمَجَامِيعِ الْقِصَصِيَّةِ  
وَالرَّوَايَاتِ إِلَّا مِنْ رَحِمِ رَبِّكَ.

- وَمَاذَا عَنْكَ أَنْتَ، كَيْفَ تَسَلَّلْتَ إِلَى رَفُوفِ مَكْتَبَتِي؟

- صِرَاحَةً، زِيَارَتِي لِبَيْتِكَ تَمَّتْ بِمَحْضِ الصَّدْفَةِ، وَلَيْسَ  
عَنْ سَبْقِ إِصْرَارٍ وَتَرْصُدٍ كَمَا تَتَوَهَّمُ.

- تَأْبَى إِلَّا أَنْ تَلْبَسَ رِذَاءَ الْبِرَاءَةِ يَا لَعِينُ!

- صَدَّقْنِي يَا سَيِّدِي! لَقَدْ وَجَدْتُ نَفْسِي فَوْقَ هَذَا  
الرَّفِّ، وَبَيْنَ هَذَا الرِّكَامِ مِنَ الْكُتُبِ رَغْمًا عَنْ أَنْفِي.

- مَحَاوَلَةٌ يَأْتِسُ مِنْكَ لِلْإِنْفِلَاتِ مِنْ طَوْقِ الْمَشْنَقَةِ يَا  
عَدُوَّ اللَّهِ.

- صَدِّقْنِي! لَقَدْ صَحَّبَنِي أَحَدُهُمْ، وَهُوَ يُدْعَى عَيْسَى  
الدَّبَاغِ الْمَقِيمِ فِي رَوَايَةِ السَّمَّانِ وَالْخَرِيفِ.

- كَيْفَ تَمَّ ذَلِكَ؟

- وَأَنَا مُنْهَمِكٌ فِي الْبَحْثِ عَنْ قِطْعَةِ ثَوْبٍ لِأَوْسَسَ بِهَا  
عَشَ الزَّوْجِيَّةِ كَمَا أَرَادَتْ شَرِيكَةُ حَيَاتِي فِي أَحَدِ الدِّكَاكِينَ،  
زَلَّتْ بِي قَدَمِي، فَوَلَجْتَ جَيْبَ مَعْطَفِهِ عَنْ غَيْرِ قِصْدٍ،

فغطستُ في غفوة، لما استيقظت وجدت نفسي بين هؤلاء القوم.

- ثم استهوتك عشرتهم ونسيت فتاة أحلامك؟

- كلا، لقد حاولتُ العودة إليها على متن ذات الراحلة، لولا أن أحد شخصيات قصة قصيرة جدًا ناشدني المساعدة من أجل الانعتاق من نير اعتقاله.

- أيريد هو الآخر أن يعيش بعرق جبينه؟

- المسكين حالته سيئة للغاية، وقد يلقي حتفه اختناقًا.

- بمعنى؟

- مشكلته أن صاحبه - أقصد كاتب القصة القصيرة جدًا بالطبع - أمعن في تفزيم القصة، لدرجة أنه لا يستطيع المسكين تسريح ساقيه فيها، فقامته أطول بكثير من السطر اليتيم الذي رُجَّ فيه.

- بم ساعدته؟

- صنعت له كوة في دفة المجموعة ثمكته من استراق  
السمع من أبطال القصص والروايات المجاورة، لكن لسوء  
حظه لم يجد في جواره سوى كتاب أخبار الحمقى والمجانين.  
- جميل.

- أما آن الأوان لتُخَلِّي سبيلي؟

- سأظلُّ مُمسكًا بتلابيبك إلى أن تُثبت براءتك.

- ممَّ يا سيدي؟

- من التجسُّس والتلصُّص عليَّ؛ صراحة أنا أشك في  
سبب وجودك في مكتبتني، وما يدريني، قد تكون عميلاً  
لخصومي؟!

- ألدَّيك خصوم؟

- أجل

- من هم؟



- أصدقاءِ حِرْفَتِي، قد يكون أحدهم أرسلك لتُحَرِّضَ  
شخوص قصصي التي أزمع كتابتها على العصيان والثورة  
ضدِّي لا سمح الله، فتُصبح أوراق مسودتي يبابًا.
- يا سيدي! أقسم لك، إنني بريء مما تتهمني به.
- احرص، ما هذه الجلبة؟ ما هذا الذي أسمعُه؟
- لا تقلق، هذا حوار بقرة محمد الهَرَّادي تراها الآن  
أقفلت راجعةً إلى حظيرتها لتستأنف أحلامها.
- أقلتَ حظيرتها؟
- عفواً، أودُّ أن أقول مكانها في رواية "أحلام بقرة".
- هي أيضًا تغادر المكتبة لتشتغل بعرق جبينها؟
- أجل؛ إنما بعرق ضرعها، ففي الشهر الفضيل يزداد  
الطلب على الحليب، سيعقبها رجوع حمار الحكيم.
- حمار الحكيم!
- يقول: إنه يخرج للمواساة والتضامن مع حمير الباعة  
المتجولين.

- وماذا عن هؤلاء الأطفال المهزولين في أثرها، سحنتهم  
ليست غريبة عني؟
- أكيد أنك تعرفهم، إنهم أولاد نجيب محفوظ، وقد  
عادوا إلى حارتهم.
- أتراهم هم أيضاً من الفئة المعوزة؟
- كلا؛ فهم يحجّون إلى الساحات العمومية لحضور  
الحلقة.
- الحلقة؟
- نعم الحلقة التي ينشطها القوقيون.

بركان يونيو 2015

۱۳

ذکری یوم عالمی

في ذكراه السنوية المتزامنة مع ذكرى شقيقه اليوم  
العالمي للأمم واليوم العالمي للشجرة، هانفته مهنتا بعيد  
ميلاده البهيج؛ فهمس لي ردا عن سؤالي عن حالته  
الصحية قائلاً:

- يا أحمد! لست على أحسن ما يرام..
- كيف ذلك يا سيدي وكل العالم يخلد ذكراك والشعراء  
ينشدون القصائد العصماء في حضرتك احتفاء بطلعتك  
البهية وبطيب نفسك الزكية، فيكيف لا تكون مزهوا  
مرحاً، تطير بأجنحة السعادة في السماوات السبع؟
- ومع ذلك يا أحمد؛ فأنا لست على أحسن ما يرام..
- ربما بسبب كثرة الشعراء وانخفاض الشعروارتفاع  
منسوب الأخطاء اللغوية و سماجة الأخطاء التعبيرية.
- ذلك غيض من فيض؛ فالأمرّ العلقم، الحنظل، هو  
عقوق شعراء هذا الزمان لي وتنكرهم لصمتي عما اقترفوه  
في حقي من جرائم، باسم الحداثة تارة وباسم الضرورة  
الشعرية تارة أخرى، تحت شعار تفجير وتدمير اللغة  
وتحطيم القواعد وتجاوز المعنى إلى اللامعنى و اللعب

بالألفاظ..

- هون على نفسك يا سيدي؛ كل شيء ممكن أن يعوض، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، من يدري فقد يأتي الفرج يوماً ما مع جيل آخر يرد لك الاعتبار..  
- يا أحمد! لا خير فيهم أنا أدري بما في نفوسهم، أبرهم بي همه الوحيد هو أن يقطع بحوري الستة عشر سباحة بشتى الوضعيات، ليصل إلى بر الرواية..

- بمعنى؟

- إنهم يسعون ليصبحوا أو ليتحولوا إلى روائيين..

- يا للعجب!

- لا وفاء لهم يا أحمد.

- ولم يهجرون بيتك أقصد بيت الشعر؟

- إنه الطمع يا أحمد الطمع ولا شيء سواه يا أحمد!

- يطمعون في ماذا؟

- يطمعون في الشهرة والمال..

- ولكن؛ أعرف شعراء هم أشهر من نار على علم نالوا

وسام المجد والشهرة، دون أن يبرحوا عتبة خيمتك.

- كيف تريدني أن أكون سعيدا في عيد ميلادي اليوم،  
مع ناكري الجميل من هؤلاء؟  
- ومع ذلك؛ سأقول لك كل عام وأنت بألف خير،  
وإلى اللقاء.

بركان 26 مارس 2017

١٤

جوارب مثقوبة

ما إن ألقيت بهيكلتي على الكرسي بجانبه، وقبل أن  
أطلب قهوتي بادرنى مقطب الجبين وهو يطوي  
الجريدة بعصبية:

- ها هي ذي مرة أخرى تفعلها كوريا الشمالية!

- ماذا فعلت؟

- ارتكبت حماقة جديدة.

- هل أطلق جنودها النار على أشقائهم في كوريا  
الجنوبية؟

- لا لم يفعلوا ذلك.

- هل أطلقوا النار على جيرانهم الصينيين؟

- لا، لم يفعلوا شيئاً من هذا.

- هل قاموا بتجربة نووية فاشلة؟

- لا ليس هذا ما قاموا به.



- هل استحوذوا على سفينة من سفن فوسفاطنا

الشريف؟

- أبدا لم يفعلوا هذا.

- فما حماقة التي ارتكبتها السيدة كوريا المصونة؟

- لقد أطلقت صاورخا باليستيا جديدا وتكللت

التجربة بنجاح، وفي نيتها تطويره ليصل مداه إلى

أمريكا !

- أتعتر هذه حماقة؟

- طبعا هذه حماقة، بل الجنون بعينه.

- أنا لا أشاطرك الرأي فليفعل الكوريون ما

يشاءون..

- كيف لا تشاطربي الرأي؛ وهم شعب فقير وينفقون

على التسليح من قوتهم اليومي.

- أهل كوريا أدري بشعابها.

- عجيب أمرك يا صاحبي؛ إذ ترى هذا الأمر عاديا وطبيعيا.

- دعنا من كوريا المارقة هذه وأجني عن هذا السؤال:

- هل نحن صنعنا أو أطلقنا صاروخا واحدا منذ استقلالنا على حساب تعليمنا، وصحتنا، ومعدتنا؟  
- لا، لم نفعل هذا أبدا.

- هل نحن إذن دولة غنية؟  
- لا، لسنا كذلك.

- إذن؛ إذا لم تكن الصواريخ البالستية سبب فقرنا، فمن فتح الباب على مصراعيه أمام الجوع، وأمام المرض، وأمام الجهل، ليغزونا في عقر منازلنا، ويتسللوا كالسوسة إلى عظامنا عبر ثقوب جواربنا؟

١٥

رأساً على عقب.

بعدهما يئس من سكون الهدير كما يئس الكفار من  
أصحاب القبور؛ عمد إلى هاتفه وركب رقم الاتصال:

- آلو: رجال الأمن؟

- نعم؛ ما خطبك!؟

- هلموا فوراً لفك نزاع خطير بين شخصين يتشاجران  
اللحظة في حي السواطير.

- هل سالت دماؤهما أم لا؟

- لا أعرف إن سالت الدماء أم لا!

- إذن ادخل جحرك، ولا تحاول إزعاجنا مرة أخرى.

- و لكن الحي مقلوب رأساً على عقب، وتبادل الضرب

والضرب المضاد على أشده، والمعركة حامية الوطيس قد

يحدث للمتقاتلين ما لا يحمد عقباه..

- قلنا لك اخرس و الزم جحرك، ودع يومنا يمر بسلام.

- في هذه الأثناء أراها يتدحرجان، كخنفسين يكوران

كرة من بعز.

- ألا تدفن يدك في فمك وتصمت، نحن لن نبرح مكاننا

إن لم يغرقا في دمائهما.  
- أنتم رجال أمن أم مصاصو دماء؟!  
- طوط طوط طوط طوط....

2019 6 22



١٦

زلزال

الزوجة تدندن نشوانة في المطبخ وهذا دأبها حين يلتئم أفراد الأسرة.. الأبناء - استثناء - في الغرفة المخصصة للضيوف للمذاكرة، لأنها أوسع من علبتهم.. وأما الزوج ففي بهو المنزل، يتفرج على التلفاز وهذا دأبه كلما عاد مساء إلى البيت.. وعيناه على الهاتف كلما ظهر رقم جديد على اللوحة. الأمور عادية. مادامت الدندنة تعلق وتبسط في المطبخ. وطنين المذاكرين مستمر في صالة الضيوف.. ولوحة التحكم في التلفاز تنشط تارة ويفتر حماسها تارة أخرى مع أي رقم جديد يظهر على لوحة الهاتف.. و فجأة يمرق صرصور قوي البنية بين قدمي ذات الدندنة المطبخية.. وتتحول الدندنة الرخيمة إلى صيحة من نافذة الاستغاثة في المطبخ.. وتنقلب طنجرة الحساء على فمها.. ويقع الصرصور المرعب في الفخ.. ويلقى حتفه غرقا في بركة الحساء. وتقفز لوحة التحكم في وجه مقدم النشرة ويسبق الهاتف صاحبه إلى إغاثة المستغيثة مرتطما بالثلاجة. ويتحول طنين المذاكرة إلى هدير سيل عارم في الشارع. وتتقاطر الأسئلة على الأبناء..



- انفجرت قنينة الغاز؟

- لا..

- سقط أحد ما من السلم؟

- لا..

- ولم كل هذه الجلبة؟

- سمعنا أمي تطلب النجدة وأبي يهرول نحوها مرعوبا. و

اندفعنا نحو الباب إلى الشارع.. وظننا أن زلزالا قد حدث..

14 أكتوبر 2017



١٧

قصف عشوائي

- وجدت الطاولة فارغة فجلست إلى جانبهما، كانا شخصين وثالثهما براد شاي تحوم حوله بضع نحلات، كانا يتكلمان بصوت مسموع وكأهما يتعمدان ذلك ليعلم رواد المقهى الموضوع الذي يخوضان فيه:
- هل شاهدت ما بثته إحدى القنوات الفضائية لدى جيراننا؟
- لا..
- الأوضاع عندهم كارثية، يقولون إنهم يعيشون في الجحيم..
- لقد اعتادوا على تلك الظروف المعيشية..
- الصور التي عرضتها القناة صورا مأساوية، لا ماء شروب متوفر، ولا مواد غذائية، ولا أدوية، ولا سكنا لائقا، ولا تعليما، ولا نقلا مضبوطا، ولا .. ولا .. ولا ..ولا..
- إنهم شعب كسول، متواكل، يرفض أن يأكل ويلبس بعرق جبينه..
- الحمد لله أننا في مملكتنا السعيدة نعم ونستمتع بشتى

- الخيرات..المجد لسواعدنا التي لا تكمل و لا تمل، المتعطشة  
للعطاء وللعمل..
- كل شيء متوفر في بلدنا الحبيب الحمد لله على  
جلائل أنعمه..
- كثر غير فلوسك كل شيء موجود..
- اللهم أدمها علينا نعمة..
- ها البطيخ.. ها البطاطا.. هاللوية..ها البنان.. ها  
الخوخ.. ها التفاح.. ها اللحم..وفي أي وقت..
- ها الحوت..
- الحوت! الحوت!؟
- ما علينا لندع الحوت جانبا..
- يا ترى فكرت في شراء خروف العيد؟
- أجل؛ لذلك قمت بجولة في سوق المدينة..
- ماذا وجدت؟
- وجدت خيرا كثيرا..
- كيف هي أسعار الأضاحي؟
- حارة محرقة .

- أصحيح ما تقول يا رجل؟
- بل تستطيع أن تقبض بيدك على الجمر على أن  
تقبض بها على قرني خروف..
- يا للعجب؛ ظننت أن مع الوفرة يأتي الرخاء فإذا مع  
اليسر يأتي العسر.
- لهفي على زمن ضاع..
- الزمن الذي كان فيه مذيع النشرة يزف إلينا النبأ  
العظيم، حيث يشنف أسماعنا بتلاوة بلاغ وزارة الأوقاف  
والشؤون الإسلامية.. نظرا لظروف الأزمة الاقتصادية  
الخانقة.. ونظرا لآفة الجفاف التي تعاني منها البلاد.. فإن  
صاحب الجلالة يهيب برعاياه الأوفياء بأن يعدلوا عن  
ذبح أضحيات العيد، وبأن يمتثلوا لهذا الأمر المولوي..  
وذلك بإلغاء الاحتفال هذه السنة بهذه السنة.. حفاظا  
على مخزون الثروة الحيوانية من رؤوس الأغنام.. وسيقوم  
جلالته بذبح أضحيتين واحدة تقربا إلى الله عن نفسه  
وأخرى نيابة عن شعبه الوفي..
- يا حسرتاه؛ دعنا من هذا، ماذا عن تكسير الروتين،

أريد أن أقول إن حبل العطللة اوشك أن ينصرم ونحن لم  
نبرح بعد مضاربنا..

- لا سفر لنا مع الغلاء الفاحش، أينما تولي وجهك  
تجد جهنما: القطارات، الحافلات الفنادق، المطاعم،  
كلها ألسنة لهب تتراقص..

- من أمامنا جهنم..

- من ورائنا جهنم..

- من فوقنا جهنم..

- من تحتنا جهنم..

- جهنم.. جهنم.. جهنم.. جهنم.. جهنم..

- إذن لا سفر؟

- لا سفر يا صاحبي.

- لا عيداً سعيداً هذه السنة..

- لا عيداً سعيداً هذه السنة.

- ليت عقارب الساعة تدور دورة إلى الخلف ولو دورة

واحدة..

- كان الله في عوننا ..

- كان الله في عون جيراننا..

9 غشت 2017



١٨

قهوة محروقة

بعدها بلغ منا الجوع مبلغه، نقت ضفادع أمعائنا نقيقا  
مسترسلا، جعلنا نبحت عن أقرب مطعم لإخماد فتنتها؛ فتأتى لنا  
ذلك في مطعم قصي في طرف المدينة حيث التهمنا غذاءنا التهام  
ألسنة اللهب للهشيم.

كعادته صديقي لا يرتاح له بال، ولا يطيب له خاطر، إلا بارتداد  
مكتبات المدينة على قلتها، فهو يؤمن بمقولة يوجد في النهر ما لا  
يوجد في البحر، فغير ما مرة عشر على كتب مهمة في مكتبات  
هذه المدينة الهامشية، قلّ نظيرها في مكتبات المدن الكبيرة. عقدنا  
العزم على زيارة إحدى هذه المكتبات، وبينما نحن نجول بين  
رفوفها، نقب عن مكنوناتها، تنتقل من عنوان كتاب إلى آخر،  
إذ بنا نحن الاثنان وفي آن واحد، نشعر بحركة غير عادية لم تكن  
المكتبة مسرحا لها، وإنما كان مسرحها أحشاءنا، في بداية الأمر  
تجاهلناها، ظنناها حدثا عارضا كأيتها الأحداث العابرة، ومع مرور  
الزمن، ألمحت لصديقي أن ثورة بركان خطير على وشك أن  
تحدث في بطني، فلنغادر المكان على جناح السرعة، دون تلكؤ  
منه وافقني صديقي الرأي لحاجة في نفسه، فإذا نحن في المقهى  
نتوخى العلاج:

- مرحبا السلام عليكم.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- أي شيء يجب الخاطر.

- أولا وقبل كل شيء كيف هي حالة دورة المياه؟
- دورة المياه!
- أقصد المرحاض هل هو متوفر؟
- صراحة لم ألق نظرة عليه.
- ما علينا؛ أريد فنجان قهوة.
- وأنت أستاذ؟
- أنا أيضا أريد قهوة سوداء.
- حاضر.

يغيب عنا مدة إحضار ما طلبناه، ثم يعود حاملا صينية بها فنجانان وكوبا ماء، وقبل أن يغادرنا لتلبية نداء أحد الزبائن؛ ابتسم لنا وهو يعن النظر في وجهي العزيز ثم قال:

- الآن فقط فهمت لماذا سألتني عن المرحاض؛ قصدك دون شك، هو حالة آلة تحضير القهوة، أليس كذلك؟ كلامك صحيح، إن لم تكن الآلة في حالة جيدة ونظيفة، فإنها تعطينا قهوة رديئة و محروقة، أنا متأكد أن هذا ما عنيت به بسؤالك عن حالة المرحاض؟ هذا تشبيه بليغ منك للآلة..

- و لكن رجاء افهمني؛ أنا سألتك عن المر.

- لا داعي للشرح؛ فالليبب بالإشارة يفهم.

قبل أن ينهي كلامه، حاولت جاهدا أن أشرح له أنني فعلا أعني بالمرحاض - بيت الراحة أي بيت الماء - لأن أمعائي ومثانتي

تكادان تجلبان إليّ العار أمام الغادي والبادي، بعد شحنتهما بما لا يطيقانه من عصير وطعام. لقد باءت كل محاولاتي لأقناعه بالفشل الذريع، لأنه اطمأن لصحّة تأويله، لما أنس من صديقي الذي كان ينظر إليه متمعنا، ويصغي إلى تفسيره الغريب للمرحاض باهتمام، ما يدعم هذا التأويل العجيب لمعنى وجود مرحاض في المقهى .

عند انصرافه عنا، التفت إلى صديقي مستغربا سرّ مجاراته للنادل في كلامه؟ افتّر ثغره عن ابتسامه عريضة و قال:  
- فعلت ذلك درء للاستطراد الذي قد يزيد من معاناة أحشائنا.

وهو يرتشف رشفة من فنجانه قال لي بصوت خفيض:  
- الآن تأكّدت بما لا يدع مجالاً للشك، أنك لست أنت من تبحث عن القصص، إنما هي التي تأتيك طائعة و عن طيب خاطر.

- ولكن قبل ذلك دلّني على المرحاض.  
- قصدك آلة تحضير القهوة، هههههه.

2019 6 22



## الفهرس

7	يد كريمة
11	هيفاء
25	بقعة ملعونة
33	ترنيمه الاستجداء
43	ضيف النشرة
51	لتحيا الحكومة
61	كاتب رسائل
69	جثة
73	بئر شطون
77	خبيبة أمل
85	مجرى
89	جاسوس
99	ذكرى يوم علمي
103	جوارب منقوية
107	رأسا على عقب
111	زلزال
115	قصف عشوائي
121	فهوة محروقة